التواصل المجتمعي في ضوء الفنون العراقية دراسة تحليلية من منظور الخدمة الاجتماعية

أ.م.د وسن محسن حسن

جامعة بغداد / كلية الآداب/ قسم علم الاجتماع

wasan.m@coart.uobaghdad.edu.iq

تاريخ استلام البحث : ٢٠٢٥/١٠/١٥

تاريخ قبول البحث : ٢٠٢٥/١١/١٥

الملخص :-

يعد الفن احد اهم اشكال التعبير الإنساني ، وتسعى هذه الدراسة إلى دراسة دور الفن العراقي من خلال منظور نظرية التواصل عند يورغن هابرماس، حيث يُعتبر الفن وسيلة للتفاعل الاجتماعي وأداة للتفاهم الجماعي. يعتمد البحث على المنهج التحليلي الوصفي لتحليل النتاج الفني العراقي، مع التركيز على مفاهيم الفضاء العمومي، الفعل التواصلي، والعقلانية التداولية التي طرحها هابرماس. يسلط البحث الضوء على تطور الفن العراقي، بدءًا من الفنون السومرية والبابلية وصولًا إلى الفنون المعاصرة، وكيفية تجسيد الأعمال الفنية للتجارب الاجتماعية والسياسية في العراق. كما يتناول تأثير الفن على بناء الوعي الاجتماعي وتعزيز النقاش العام، إذ يهدف البحث إلى استكشاف كيفية مساهمة الفن العراقي في خلق فضاء عمومي نقدي وفقًا لنظرية هابرماس، ومدى قدرة الأعمال الفنية على تغيير الوعي الجمعي عبر عمليات التواصل والتأويل. يخلص البحث إلى أن الفن العراقي يتجاوز كونه مجرد انعكاس للحالة الاجتماعية والسياسية؛ بل يُعد أداة تواصلية فعّالة تسهم في إعادة تشكيل الفضاء العمومي عبر إثارة النقاش حول قضايا مجتمعية جوهرية، مما يعزز الهوية الثقافية العراقية ويوثق الحوار النقدي المستمر.

كما ويستنتج البحث أن الفن العراقي يمثل وسيلة فعّالة للتفاعل بين الأفراد والمجتمعات، ويعزز الحوار بين الفئات الاجتماعية المختلفة. كما يعكس الفن الصراعات الداخلية ويسهم في تفعيل النقاش حول قضايا الهوية والمواطنة، بالإضافة إلى بناء جسور تواصل بين الأجيال ونقل التجارب الجماعية والذكريات التاريخية. يُسهم الفن في تجاوز الانقسامات العرقية والطائفية ويعزز الحوار بين الأطياف الاجتماعية المختلفة، مما يساعد في

بناء مشروع ثقافي اجتماعي قائم على التفاهم المتبادل. بالإضافة إلى ذلك، يسلط الفن الضوء على التحديات السياسية والاجتماعية في العراق، ويقدم رؤى نقدية تتجاوز الأنظمة السائدة، مع تعزيز التفاعل الإبداعي من خلال اللغة البصرية والتعبيرية،وتتمثل اهم توصياته بدعم المبادرات الفنية التي تعزز التواصل بين الفئات المجتمعية، وتشجيع الفنانين على استخدام الفن كأداة للنقاش حول الهوية والمواطنة، وتفعيل الحوار بين المكونات الثقافية المختلفة.

الكلمات المفتاحية : التواصل المجتمعي – الفنون العراقية – الخدمة الأجتماعية .

Community engagement in light of Iraqi arts: An analytical study from a social work perspective

Assistant Professor Dr.Wasan Mohsen Hassan

University of Baghdad/College of Arts

wasan.m@coart.uobaghdad.edu.iq

Date of Submission: 15/10/2025

Date of Acceptance: 15/11/2025

Abstract:

This study aims to examine Iraqi art through the lens of Jürgen Habermas' theory of communication, considering it as a medium for social interaction and a tool for collective understanding. The research adopts a descriptive-analytical methodology, analyzing Iraqi artistic production in relation to Habermas' concepts of the public sphere, communicative action, and deliberative rationality. It highlights the role of art in shaping social awareness and fostering public discourse the study traces the evolution of Iraqi art, from Sumerian and Babylonian art to contemporary artistic expressions, with a particular focus on how artworks reflect social and political experiences. It also explores the audience's engagement with art as a communicative practice and its impact on the development of critical consciousness within society.

This research seeks to answer the following questions: How does Iraqi art contribute to the creation of a critical public sphere according to Habermas' theory? To what extent can artistic works transform collective consciousness through processes of communication and interpretation? The study concludes that Iraqi art is not merely a reflection of social and political realities but serves as an effective communicative tool that reshapes the public sphere by stimulating discussions on fundamental societal issues. This underscores its significance in shaping Iraqi cultural identity and fostering continuous critical dialogue.

Keywords: Community engagement – Iraqi arts – Social service.

مشكلة البحث:

يتناول هذا البحث قضية غاية في الأهمية ترتبط بالفن العراقي ودوره في المجتمع العراقي، لكن الدراسة لا تقتصر على توثيق أو تحليل الأعمال الفنية بحد ذاتها، بل تدور حول دور الفن العراقي كأداة تواصلية وفقًا لنظرية هابرماس في التواصل. يرى هابرماس أن التواصل الفعّال يعزز الوعي الاجتماعي ويسهم في بناء الفضاء العام الذي يسمح بتبادل الأفكار والآراء بين الأفراد في المجتمع. بناءً على ذلك، تعتبر الأعمال الفنية بمثابة وسيلة قوية للتفاعل بين الأفراد في المجتمع العراقي، خاصة في فترات معقدة مثل الحروب والنزاعات، إذ يتخطى الفن حدود الزمان والمكان ليكون أداة تواصلية تعكس قضايا اجتماعية وسياسية، وتساهم في تشكيل الوعي العام، وفي سياق ذلك يتطلب البحث التعامل مع عدة تساؤلات أساسية تدور حول دور الفن العراقي في سياق نظرية التواصل، وكيف يمكن أن يكون أداة تغيير اجتماعي وثقافي. هذه التساؤلات تعدّ لبنة أساسية لفهم العلاقة بين الفن والمجتمع في سياق التحولات التي مر بها العراق، من الماضي إلى الحاضر، وأثر ذلك في تشكيل وعي الأفراد والجماعات.

١. كيف يسهم الفن العراقي في خلق فضاء عمومي نقدي وفقًا لنظرية هابرماس؟

٢. ما دور الفعل التواصلي في الأعمال الفنية العراقية في تعزيز الحوار العام بين أفراد المجتمع؟

٣. إلى أي مدى يمكن أن تؤثر الأعمال الفنية العراقية في تشكيل الوعي الاجتماعي والسياسي لدى الأفراد والجماعات؟

٤. كيف يتفاعل الجمهور العراقي مع الفنون في إطار الممارسات الاتصالية، وما تأثير ذلك على تشكيل الهوية الثقافية الوطنية؟

أهمية البحث:

تتمثل أهمية هذه الدراسة في تسليط الضوء على دور الفن العراقي كمحور أساسي في بناء الفضاء العام وتفعيل التواصل الاجتماعي في المجتمع العراقي. إن الفن لا يُنظر إليه في هذا البحث كأعمال فنية مستقلة، بل كأداة تواصلية تُسهم في تحفيز التفكير النقدي والمناقشات العميقة حول القضايا الاجتماعية والسياسية في العراق، لا سيما في ظل الظروف المعقدة التي مر بها المجتمع، من حروب وصراعات. يُعتبر هذا التوجه أمرًا بالغ الأهمية لأن الفن يصبح وسيلة للانتقال عبر حدود الزمان والمكان، ليعمل كحلقة وصل بين الأفراد من خلال ما يحمله من رسائل وتعبيرات تعكس الواقع الاجتماعي والسياسي،تأتي أهمية هذه الدراسة من كونها تربط

بين النظرية الفلسفية الاجتماعية لهاربرماس وبين الواقع العراقي، وتبحث في كيفية استخدام الفن كأداة لتشكيل الوعي الجماعي وتعزيز الحوار المجتمعي. يُعتبر هذا البحث بمثابة محاولة لفهم كيف يمكن أن يُسهم الفن في بناء فضاء عمومي نقدي قادر على معالجة التحديات المجتمعية والسياسية، مما يُسهم في إعادة تشكيل الهوية الوطنية العراقية من خلال النقاشات الاجتماعية والسياسية التي يثيرها الفن.

من خلال تبني إطار هابرماس، تسعى الدراسة إلى فهم كيفية تأثير الفعل التواصلي في الأعمال الفنية على تشكيل الوعي الاجتماعي والسياسي للأفراد والجماعات، وهو ما يعكس العلاقة الوطيدة بين الفن والمجتمع. كما أن البحث يفتح المجال لدراسة كيفية التفاعل الاجتماعي بين الجمهور العراقي والفنون، ومدى تأثير هذه التفاعلات على بناء هوية ثقافية وطنية موحدة في ظل التحديات الراهنة.

أهداف البحث:

١. تحليل دور الفن العراقي كأداة تواصلية تعكس الواقع الاجتماعي والسياسي للعراق.

٢. دراسة تطبيق نظرية هابرماس "الفعل التواصلي" في الفن العراقي وتوضيح كيف يمكن أن يسهم الفن في بناء حوار اجتماعي بين الأفراد.

٣. استكشاف العلاقة بين الفن والهوية الوطنية العراقية من خلال النظر في كيفية تعبير الفنون عن القيم الثقافية والتاريخية.

منهج البحث:

المنهج المستخدم في هذه الدراسة هو المنهج "الوصف التحليلي" سيعتمد هذا المنهج على تحليل الأعمال الفنية العراقية المختلفة ودراستها من منظور نظرية الفعل التواصلي لهابرماس.

اولا:-مفاهيم البحث.

مفهوم الفن لغة(concept of the art):- هو عمل إبداعي يشمل مجالات متنوعة مثل الرسم، النحت، الموسيقى، الفن المأساوي، الحرف البدوية، فن الخطابة، وغير ذلك من الفنون. كما يتضمن الفن التجريدي الذي يعتمد على الأشكال المجردة، والفن التعبيري الذي يستند إلى الانطباعات الذاتية، أما الفن المعماري فيختص بتصميم وتشييد المباني وتتمثل قيمة الفن في قدرته على خدمة المجتمع من خلال الفنون الأدائية مثل الرقص، والدراما، والموسيقى التي تُؤدى أمام الجمهور، أما الفن السابع فهو يتعلق بفن السينما، بما في ذلك القواعد

والأسس والاصطلاحات الخاصة بتسجيل الصور المتحركة وعرضها للجمهور[1],هو تعبير ظاهري عن ما يحدث في النفس من دوافع وتأثيرات من خلال الخطوط أو الألوان أو الحركات أو الأصوات أو الكلمات [2] .

مفهوم الفن اصطلاحاً :-

هو التطبيق الفعلي للنظريات العلمية باستخدام الوسائل التي تحققها، ويكتسب من خلال الدراسة والممارسة، يشمل مجموعة من القواعد الخاصة بمهنة أو صناعة معينة، بالإضافة إلى الأدوات التي يستخدمها الإنسان لإثارة المشاعر والعواطف، وخاصة عاطفة الجمال، مثل التصوير، والموسيقى، والشعر وهذه المهارات تتطلب ذوقًا ومواهب خاصة[3] ,هو تعبير جمالي يعكس المدركات والعواطف ويعمل على نقل المعاني والمشاعر إلى الآخرين [4]، الفن لدى بدوي يعبر عن الجماليات الناتجة عن المشاعر والمدركات، حيث يُستخدم لنقل المعاني والأحاسيس إلى الآخرين بهدف إثارة إعجابهم وإسعادهم، وذلك من خلال أعمال تتسم بالجمال والمهارة، الفن عنده ليس مجرد تمثيل للواقع أو تقليد للطبيعة، بل هو خلق علاقات جديدة بين عناصر مأخوذة من الحياة والمجتمع والطبيعة. ويُعدّ الفن ظاهرة اجتماعية وطبيعية تسعى للإجابة على أسئلة الحياة الرمزية، كما يبرز المهارة اللازمة لإنتاج كل ما هو جميل، تُعرف الفنون الجميلة بـ fine artsوتشمل الموسيقى والأدب والفنون المرئية، إضافة إلى الفنون المركبة مثل الرقص والمسرح والأوبرا، والفنون التطبيقية مثل الرسم وتصميم النسيج والخزف [5].

وقد عرف الفيلسوف (كانت) "الفن" بأنه يمثل الخبرة الحسية المتشكلة من تفاعل الأحاسيس المتنوعة وفقاً للزمان والمكان، مما يبلور معرفة دقيقة وعميقة بالموضوع المحسوس، حيث يحيط هذا الفن بالحوافز والمنبهات، وتنصت آذاننا،ويذوق لساننا، وتستشعر بشرتنا درجات الحرارة، وترى أعيننا الضوء، وتختبر مشاعرنا الأشياء الجميلة[6]، الفنون هي أساس بناء المجتمعات وعمرانها وتحضرها، وقد كانت المقياس التاريخي الأهم لرفعة وأهمية العصور الماضية التي يدرسها المؤرخون ويبحثون في أحداثها، فكلما كانت الحقبة غنية بالأحداث الأدبية والفنية، اعتبرها المؤرخون والنقاد فترة مزدهرة ومتألقة، تسود فيها ذائقة فنية رفيعة تنعكس على بنية المجتمع في ذلك العصر. [7].

اما جون ديوي فإنه عرف الفن على أنه تجربة أو خبرة ناتجة عن تفاعل الفرد مع بيئته بهدف تحقيق التوازن والتكامل معها، مما يؤدي إلى شعور بالرضا واللذة. كما أن ارتباط هذه الخبرة يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحضارة. من جهة أخرى، يعرّفه أرسطو على أنه وظيفة أساسية تهدف إلى تقديم المتعة الصامتة للناس دون النظر إلى القيمة الاستعمالية، وقد صنف مجالات الإبداع الفني بناءً على أهميتها [8] .

المفهوم الأجرائي للفن: هو مجموعة من القدرات الفنية المتنوعة التي تحمل الذائقة الجمالية المكتسبة في مختلف المجالات، وتتميز بدرجات إبداعية متفاوتة بين المبدعين، يُعد الفن وسيلة تعبيرية يُظهر من خلالها الفنان مشاعره وعواطفه، ويستخدمها لإثارة حس الجمال لدى الآخرين.

المحور الأول: الفن كوسيلة تواصلية واجتماعية.

" الفن هو خلق الشكل الدال، حيث أن التبسيط يتضمن تصفية ما هو دال من ما لا دلالة له[9] ،وعلى الرغم من أن الفن يميل إلى الثورة ضد الصور العلمية للعالم، فإن السوسيولوجيا تميل إلى النجاح والازدهار في الحياة الاجتماعية، بينما يتجه الفن إلى الثورة ضد الشروح المادية للحياة، في حين تركز السوسيولوجيا على إثارة الاهتمام من خلال عرض ما هو فريد كعنصر اجتماعي وإنتاجه اجتماعياً [10], أما تعريف "سويف"، فيرى أن الفن هو رسالة من الأنا إلى الآخر من أجل استعادة "النحن"، أي رسالة الفنان إلى الآخرين بهدف تحقيق حالة من التكامل النفسي والاجتماعي [11],من ناحية أخرى، يعرفه "بورديو" على أنه منظومة من الاستعدادات المستدامة، وهي مجموعة متكاملة من القدرات والعادات والتأثيرات الجسدية التي تشكل الفرد من خلال التلقين والغرس غير الواعي في الذهن، مما يسهم في استبطان أساليب الوجود الخاصة بوسط اجتماعي معين [12]،يُعتبر الفن هو اساس المجتمعات, فهو سبب تطورها وتحضرها فلطالما كانت الفنون هي ذلك المقياس التاريخي الذي من خلاله يتضح مدى رفعة وأهمية المتطلبات الزمنية القديمة التي تكون ممتلئة بالاحداث الادبية والفنية، حيث كان لوجود النقاد والمؤرخين دوراً في تفسيرها وتفسير اسباب ازدهارها التي كانت تسود طابعها الفني،لذلك كان المسرح هو الأب الروحي لكافة الفنون فهو مقياس فني لأي عمل سواء أكان درامي او كوميدي او سياسي [13].

كما يقول شيلر، الفن يجعل لون الحقيقة يتجلى في أطياف الألوان السبعة ((قوس قزح))، ويُعد إبداع الإنسان هو الأسمى في خصائصه، حيث يصوره فنه الذي يجسد هذا الإبداع ويجعله مرئياً أو مسموعاً أو منطوقاً.[14]

المحور الثاني: تعريف يورغن هابرماس وأعماله الأساسية.

يعتبر يورغن هبرماس من أبرز الفلاسفة والمنظرين الاجتماعيين والمثقفين ونقاد العصر على مستوى العالم. وقد تُرجمت أعماله العديدة إلى أكثر من ثلاثين لغة. كما حصل على العديد من الجوائز الفخرية من جامعات ومؤسسات عالمية. بدأت أعماله تظهر في بداية خمسينيات القرن الماضي، وأصبح موضوعًا للدراسة النقدية منذ أوائل الستينيات،وُلد يورغن هبرماس في الثامن من يونيو عام ١٩٢٩ في دوسلدورف، غرب ألمانيا. أكمل دراساته العليا في الفلسفة والتاريخ وعلم النفس والأدب والاقتصاد في عدة جامعات ألمانية، مثل غوتنغن وزوريخ

وبون. حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة بون وشهادة التأهيل من جامعة ماربورغ. عمل في العديد من الجامعات ومراكز البحث حتى تقاعده، منها معهد الدراسات الاجتماعية وجامعة هايدلبورغ وجامعة فرانكفورت ومعهد ماكس بلانك، بالإضافة إلى جامعة نورثوسترن[١٥]، في سياق الفن يرى هابرماس أن اللغة لا تقتصر على كونها مجرد أداة للتواصل، بل هي مساحة حيوية للتفاعل الثقافي والإبداعي، حيث يلعب الفن دورًا أساسيًا في خلق حوار مفتوح مع الآخر، وتحقيق الاتصال بين الأفراد والمجتمعات،أما في مجال الفن، فيرى هابرماس أنه من الضروري أن يُنظر إلى الإبداع الفني كفعل تواصلي يساهم في تشكيل الواقع الاجتماعي من خلال اللغة البصرية والتعبيرية ويعتقد أن الفن، مثل أي فعل اجتماعي آخر، لا يُفهم بمعزل عن التأثيرات الاجتماعية والثقافية التي تساهم في تشكيله، حيث إن الفن يعبر عن تفاعلات معقدة بين الأفراد والبيئة المحيطة بهم[١٦]،في السياق العراقي، يمكن توظيف هذا النص لتسليط الضوء على دور الفن في بناء جسور تواصل بين الثقافات المختلفة والتعبير عن الواقع الاجتماعي المعقد الذي يعيشه العراق. على الرغم من التحديات السياسية والاجتماعية التي مر بها العراق، يظل الفن بمختلف أشكاله وسيلة للتعبير عن الهوية الوطنية والصراعات الداخلية والتفاعل مع الآخر، سواء كان محليًا أو دوليًا،في العراق، الفن ليس مجرد وسيلة للتسلية أو الترفيه، بل هو أداة تواصل حيوية تساهم في توجيه النقاش الاجتماعي والبحث عن حلول للتحديات السياسية والاقتصادية التي يواجهها الشعب. كما يعكس الفن العراقي تفاعلات معقدة بين مختلف المكونات الثقافية والدينية في المجتمع، مشيرًا إلى التاريخ الطويل من التعايش بين هذه المكونات وضرورة الحوار بين الأفراد والجماعات المختلفة،من خلال الأعمال الفنية، يمكن للفنانين العراقيين تقديم رؤى جديدة حول واقعهم المعاش، وفتح قنوات حوار بين الأجيال المختلفة، وتوثيق التحولات التي يمر بها العراق في ضوء المعاناة والأمل. ووفقًا لرؤية هابرماس، يتحقق هذا التواصل الفني عبر اللغة البصرية التي تتيح للفنان التعبير عن فكرته ورؤيته للمجتمع، مما يجعل الفن في العراق وسيلة فاعلة لخلق حوار مفتوح بين الأفراد والمجتمعات.

هابرماس يعتبر الفن جزءًا أساسيًا في مشروع الحداثة الذي لم يكتمل بعد، حيث يرى أن الفن، مثل الحداثة نفسها، لم يحقق بعد النتائج المنشودة. يعود ذلك إلى العديد من الانكسارات والتراجعات التي عطلت تطوره، وهو ما جعل الفن في بعض الأحيان يفقد قدرته على التعبير عن ذاته بعيدًا عن بؤر التمركز التي تشوهه. حاول هابرماس إعادة التفكير في الفن من خلال تقديم فكر جديد يعيد للفن دوره في الحوار التواصلي الذي لا يلغي الآخر أو يهمشه، بل يعزز من تواصل الأفراد ويتيح لهم التعبير عن أنفسهم بحرية دون قيود، من خلال مواقفه من الحداثة، عمل هابرماس على إنقاذ المشروع الحداثي بإعادة تقديمه من خلال العقل التواصلي الذي يربط بين الفنون والحداثة. يرى أن الفن، كما الحداثة، يجب أن يبقى في قلب المشروع النقدي الذي يسعى إلى بناء الذات عبر تفاعل الأفراد وتواصلهم،وفي تحليله لقضايا ما بعد الحداثة، يلفت هابرماس النظر إلى أن القرنين التاسع

عشر والعشرين شهدت ظهور مجموعة من الخطابات الفلسفية التي سعت إلى استمرار تطور الحداثة، بما في ذلك الفن. وفي هذا السياق، يدعو هابرماس إلى تفكيك العقل الأداتي الذي يهيمن على الفن، مطالبًا بعقلانية نقدية تعيد للفن قدرته على التعبير عن الإنسان في إطار رؤية اجتماعية جديدة، تقوم على التواصل بين الأفراد وحفاظهم على خصوصياتهم الثقافية والفنية [١٧].

توظيف أفكار هابرماس على الواقع العراقي يعكس أهمية الفن في بناء حوار تواصلي يمكن أن يساعد في تجديد الوعي الثقافي والاجتماعي في العراق. يعد هذا السياق حساسًا للغاية، خاصةً في ظل التحديات السياسية والاجتماعية التي شهدها العراق في العقود الأخيرة، وما زال يعاني منها،الفن في العراق، بعد فترات من الحروب والصراعات، يحتاج إلى استعادة دوره كأداة للتعبير والتواصل الجماعي بعيدًا عن أي تقوقع أو تشويه. بناءً على أفكار هابرماس، يمكننا فهم كيف يمكن للفن أن يكون جزءًا من مشروع بناء "الذات" العراقية الجماعية عبر تفاعلات وحوارات متعددة. بمعنى آخر، الفن يمكن أن يسهم في إعادة تشكيل الهوية الوطنية من خلال النقاشات التي يثيرها بين الأفراد، مما يعزز من تواصلهم ويخلق منصة للتعبير عن همومهم وآمالهم،وعند تطبيق هذه الفكرة في العراق، يمكن للفن أن يكون وسيلة للتغلب على العزلة والتفرقة بين الأطراف المختلفة في المجتمع. خاصةً في بلد يعاني من الانقسامات الثقافية والعرقية والطائفية، قد يوفر الفن إطارًا حواريًا يجمع بين أفراد المجتمع المختلفين من خلال تجسيدهم لقصصهم وألمهم وتجاربهم المشتركة،ومن خلال تأكيد هابرماس على "العقل التواصلي"، يمكن للثقافة العراقية أن تنفتح على مفاهيم نقدية جديدة، تضمن مشاركة الجميع في بناء المجتمع بعيدًا عن الهيمنة والتهميش. هذا يمكن أن يسهم في تشكيل هوية عراقية جديدة قادرة على الحفاظ على خصوصياتها الثقافية والفنية مع تعزيز التواصل والتفاعل بين مختلف المكونات المجتمعية،كما يشير هابرماس إلى أن الفن يجب أن يكون بعيدًا عن هيمنة العقل الأداتي الذي قد يفرغ الفن من محتواه العميق ويحول دون قدرته على التعبير عن إنسانية الفرد. في العراق، قد يساعد هذا الفهم للفن في توجيه الفنون العراقية نحو دور أكثر نقدية وفاعلية في معالجة القضايا الاجتماعية والسياسية، والابتعاد عن الآليات التي تساهم في تفتيت المجتمع أو تشويهه.

المحور الثالث: نظرية الفعل التواصلي وتطبيقاتها.

نظرية فعل التواصل (١٩٨٤-١٩٨٧) تُعد نظرية "التواصل" التي وضعها الفيلسوف الألماني المعاصر يورغن هابرماس نظرية متعمقة تبحث في "الوعي العميق"، وتعتبر تتويجاً لمراحل طويلة من التطور الفكري في ألمانيا وأوروبا بشكل عام. ورغم أنها ما تزال تدرس وتتناول في العديد من الكتب التي تهدف إلى توضيحها وتبيان جذورها، إلا أن شرحها "فلسفياً" من جميع جوانبها يبقى أمراً معقداً ويتطلب مبحثاً خاصاً لهذا الموضوع، ما المقصود بالفعل التواصلي لدى هابرماس ؟ يُعرّف هابرماس الفنون التفاعلية بأنها تلك الأنشطة التي لا ترتبط

مباشرة بمصالح مادية أو سياسية، بل تسعى إلى تحقيق التفاهم الجمالي والتعبيري بين الأفراد. لا يتحقق هذا التفاهم إلا من خلال لغة فنية معبرة، وهو ما دفع العديد من المفكرين إلى الحديث عن "المنعطف الجمالي" في فكر هابرماس، وهو المفهوم الذي أشار إليه هو ذاته. بناءً على ذلك، أدرج هابرماس الفن كعنصر أساسي لفهم التفاعلات الجمالية والتواصلية بين الأفراد. ولتعميق رؤيته حول الفعل الفني، أكد أن الفن لا يسعى إلى التأثير على مشاعر الآخرين بالقسر أو الضغط، بل يسعى إلى بناء تجربة مشتركة من التفاهم الجمالي والتوافق بين المتلقين والمبدعين، مما يعزز روح التفاعل الحر والمبدع بين الب[١٨].

صدر كتاب "نظرية الفعل التواصلي" لهبرماس في عام ١٩٨١، عن دار زوركامب في فرانكفورت، في مجلدين، ليحظى بتقبل واسع ويُباع منه آلاف النسخ بعد فترة قصيرة من صدوره. كان الكتاب قد تم الإعلان عنه قبل نشره بفترة طويلة، ويُقال بتلميح كانطي أنه انتظر أكثر من عشر سنوات ليظهر إلى النور. في الواقع، يشكل الكتاب تتويجًا لجهود ومحاولات استمرت لعقدين من الزمن، ويُعد من أبرز مؤلفاته وأكثرها تأثيرًا في مسيرته الفكرية[١٩]،يركز منظور هابرماس للغة والتواصل على البنية البراجماتية للغة وقدرتها على تأسيس تواصل أصيل، مما يسهم في تعزيز قيم الحوار والمناقشة الأخلاقية في المجتمع. وفقًا لهذا المنظور، لا تفصل الكلمة عن معناها، بل يتحدد المعنى من خلال السياق والاستخدام. فالبعد البراجماتي للغة، المتعلق بشروط الاستخدام الفعّال للعلامات، ليس مجرد عنصر إضافي أو ثانوي في مواجهة نظام من العلامات المحددة، بل هو جزء أساسي من التركيب الدلالي للغة [٢٠] ،نظرية الفعل التواصلي" تظل ضمن الإطار المعهود في مؤلفات هابرماس السابقة من حيث العمق والصعوبة. في هذا الكتاب المتميز، سعى هابرماس إلى بناء نظرية جديدة للمجتمع، حيث يعتمد بشكل أساسي على التواصل كوسيلة للوصول إلى فهم أعمق للعلاقات الاجتماعية. ولتحقيق هذا الهدف، قدم نقداً منهجياً وتاريخياً للعديد من النظريات الحديثة، بدءًا من أفكار ماكس فيبر وهوركهايمر وأدورنو، مروراً بجورج ميد ودوركايم، وصولاً إلى مفاهيم رواد التداوليات المعاصرة مثل أوستين وسورل. وفي النهاية، قدم هابرماس مفهوم "العقل التواصلي" الذي يُعد ابتكارًا مهمًا في مجاله. ولكن هذه الإسهامات لم تخلو من النقد، خاصة فيما يتعلق بالجانب التجريدي والمركب الذي تميز به الكتاب[٢١].

توظيف نظرية الفعل التواصلي على الفن العراقي :-

نظرية الفعل التواصلي التي طورها الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس تُعد من أبرز الإسهامات في فلسفة التواصل والعلاقات الاجتماعية. يسعى هابرماس من خلال هذه النظرية إلى فهم أعمق لكيفية تفاعل الأفراد في المجتمع من خلال اللغة كأداة أساسية للتفاهم والتواصل. تميزت هذه النظرية بتقديم مفهوم "العقل التواصلي" الذي يسعى إلى بناء تواصل قائم على أساس من الفهم المشترك والموافقة الطوعية بين الأفراد، بعيدًا عن أي نوع من الهيمنة أو الإكراه. وركز هابرماس في هذا السياق على أهمية النقاشات العقلانية الحرة، حيث

يتكون المعنى من خلال التفاعل الاجتماعي بين الأفراد،نظرية الفعل التواصلي لا تقتصر فقط على تحليل التواصل اليومي أو العلاقات الاجتماعية التقليدية، بل تشمل أيضًا كيفية تأثير الفن والفعل الجمالي في بناء الروابط الاجتماعية. ينظر هابرماس إلى الفن باعتباره مساحة خاصة للتفاهم الجمالي، بعيدًا عن المصالح المادية أو السياسية، وهو ما يسهم في خلق تفاعل ثقافي وأخلاقي بين المبدع والمتلقي. يعزز هذا النوع من التواصل الجمالي الفهم المشترك والتفاهم العميق، مما يؤدي إلى تعزيز التعاون بين الأفراد في المجتمع،إذا أدرجنا هذه النظرية على الفن العراقي، يمكننا أن نلاحظ كيف أن الفنون في العراق تتسم بجانب من الفعل التواصلي القوي الذي يتجاوز حدود التعبير الفني البسيط. فن الرسم والموسيقى والمسرح العراقي، على الرغم من السياق السياسي والاجتماعي الصعب الذي يعيشه البلد، لا يزال يسعى إلى خلق تفاعل فكري وجمالي بين الفنان والجمهور. في هذه الفنون، لا يتوقف دور الفنان عند مجرد نقل رسالة معينة أو إحداث تأثير عاطفي، بل يتعداه إلى بناء علاقة تواصلية بين الذات الجماعية والإنسانية للفنان والمشاهد. هذه العلاقة تقوم على الوعي المشترك بالمشاكل الاجتماعية والإنسانية التي تواجهها المجتمعات العراقية، وبالتالي فإن الفن يصبح وسيلة للبحث عن التفاهم والتوافق بين الأفراد المختلفين.

ومن خلال هذا السياق، يمكن أن يُنظر إلى الفن العراقي على أنه تجربة تواصلية فريدة تساهم في ربط الأفراد بهوياتهم الثقافية والاجتماعية. على سبيل المثال، يمكن للأعمال الفنية التي تعكس مآسي الحروب أو معاناة الشعب العراقي أن تكون بمثابة جسر للحوار بين الماضي والحاضر، وتتيح للمشاهد فرصة للغوص في تجارب الآخرين، وبالتالي التفاعل مع معاناة الآخرين ومحاولة بناء تفاهم أكبر بشأن القضايا الإنسانية المشتركة. هذا الفهم التواصلي يجعل الفن العراقي وسيلة للتفكير النقدي وتجاوز الاختلافات، وتعزيز التفاعل الحر والمبدع بين الأفراد.

بهذا الشكل، يعزز الفن العراقي دور التواصل التفاعلي، حيث لا يتم النظر إلى العمل الفني كمنتج منفصل عن الجمهور، بل كأداة للتفاعل الجماعي الذي يهدف إلى تحقيق الفهم الجمالي والتفاهم بين الأفراد والمجتمع. هذه الرؤية تتوافق مع فكرة هابرماس عن الفعل التواصلي كعملية تشاركية تُعزز التفاهم المتبادل، حيث يُعتبر الفن مجالًا يمكن من خلاله بناء تواصل عميق يتجاوز الحدود الاجتماعية والعرقية والدينية، مما يسهم في الوحدة الثقافية والاجتماعية للشعب العراقي،لذلك يمكننا النظر في بعض الأعمال الفنية التي تمثل تفاعلًا تواصليًا بين الفنان والجمهور، مع تسليط الضوء على كيفية تجسيد هذه الأمثلة لفكرة هابرماس عن "العقل التواصلي" والفهم المشترك.

١. المسرح العراقي:

بدأ المسرح العراقي في بغداد بعد ان كانت الفرق التمثيلية التي قام بتأسيسها حقي الشبلي في عام ١٩٢٧، هي اول فرقة عراقية سماها بـ (الفرق التمثيلية الوطنية) , وبعد ذلك قام بتشكيل الفرق و المسارح الأهلية مثل (مسرح بغداد) و (مسرح التمثيل العربي)،حيث كانت التمثيليات في ذلك العهد تهدف الى أثارة الشعور القومي والوطني وإيقاض الشعب وتوجيهه الى صنع خير البلاد, والسعي الى العمل المثمر وغرس القيم الرفيعة [٢٢] ،ففي حلول الثلاثينيات من القرن العشرين وبفضل العديد من الأندية والفرق المسرحية الجديدة ألتي نشأت ,كانت قد نشأت معها التغيرات الإجتماعية والثقافية التي أثرت على المستوى الثقافي داخل بؤرة المجتمع[23]،الى جانب ذلك فان فن التمثيل كان حديث النشأة في العراق, ففي القرن العشرين اصبح للتمثيل قواعد معينة ، إذ كان الأزدهار والتقدم حافلاً به ، وكان الفنانون يقيمون تلك المهرجانات المختلفة, ممثلين فيها انتصاراتهم وحروبهم وتلك الحوادث الخيالية بشكل بسيط ، إلى جانب ذلك فإنه لم يكن للعراق فرق تمثيلية في نهاية الحرب العالمية الاولى ولا مسارح تتوفر فيها, لكن الاساليب الحديثة تعددت فيها انواع من التسلية متمثلة بالتمثيل الخيالي الهزلي المعروف بـ ((القرة قوز)), والذي يقوم به اولئك الذين كانوا يملؤون دور المراقص والملاهي وكان هذا النوع من التمثيل هو العامل الأول الذي حط بكرامة التمثيل الحديث لدى الشعب العراقي حتى اختمرت تلك الافكار وكونت الصورة المشوهة له, فما ان يذكر التمثيل الا ويقرن بتلك الوجوه الهزلية الممسوخة والملابس البالية المزركشة, ولكن ظهور المدارس الكثيرة التي افتتحت في العراق بعد الحرب العالمية الاولى جمعت الشباب المتنورين ، فكان لها الاثر في تحويل نظرة الجمهور الى نظرة حقيقية, اذ يعتبر التمثيل مدرسة يستفيد منها الشعب اكثر من استفادته من سماع القصص التاريخية في المقاهي والنوادي الاهلية [24].

على سبيل المثال يمكننا النظر في الأعمال المسرحية التي تم عرضها في العراق خلال فترة ما بعد الحرب، مثل مسرحية "الملك لير" التي أخرجها الفنان العراقي الكبير عوني كرومي. في هذه المسرحية، يُعيد كرومي تجسيد الأبعاد الإنسانية لمعاناة الأفراد تحت ظروف الحروب والصراعات الاجتماعية. يهدف الفنان من خلال هذه الأعمال إلى خلق تفاعل تواصلي مع الجمهور، حيث يفتح المجال للمشاهدين للتفاعل مع قضايا إنسانية عميقة. هذا التفاعل يخلق نوعًا من الفهم المشترك بين الجمهور والفنان، ويعزز عملية التفاهم والتواصل من خلال الفن، وهي واحدة من القيم التي يؤكد عليها هابرماس في نظرية الفعل التواصلي. المسرحية ليست مجرد سرد درامي، بل هي دعوة للتفكير الجماعي والتفاهم المشترك حول مشاعر الضعف والمقاومة التي يعيشها الأفراد.

٢. الرسم والفن التشكيلي العراقي:

أما في مجال الفن التشكيلي، فيمكننا أن نلاحظ العديد من الأعمال الفنية التي تعكس الأزمات الاجتماعية والسياسية في العراق. على سبيل المثال، يمكننا الإشارة إلى الأعمال الفنية للفنان التشكيلي العراقي "شاذل طاقة" الذي استخدم اللوحة كوسيلة للتعبير عن مآسي الحرب والدمار. لوحاته، التي تعرض ملامح الوجوه المتألمة والتفاصيل الدقيقة للمشاهد الحربية، تفتح المجال للحوار بين الفنان والمشاهد. هذه الأعمال لا تقتصر على نقل شعور الفنان الفردي بل تحاول خلق مجال تواصلي مع المشاهدين، حيث يساهم الفن في تعزيز الفهم المشترك والوعي الجماعي بالألم والمعاناة، وبالتالي يصبح وسيلة للتفاعل الجماعي والتفاهم.

٣. الموسيقى والفعل التواصلي:

وفي مجال الموسيقى، يمكن أن نذكر تأثيرات الموسيقى التقليدية العراقية والفن الصوتي في بناء تواصل فكري وجمالي. على سبيل المثال، يستطيع الموسيقي العراقي "نصير شمة" من خلال عزفه على آلة العود أن يخلق تفاعلًا تواصليًا مع جمهوره، حيث يُحاكي معاناة وأمل الشعب العراقي من خلال ألحان تحمل رسالة عميقة. الموسيقى، بهذا الشكل، لا تنقل فقط مشاعر الفنان بل تساهم في تعزيز الفهم المشترك بين الجمهور والفنان، إذ تصبح وسيلة لتعزيز التعاون الفكري والعاطفي بين الأفراد في المجتمع.

٤. السينما العراقية:

من الأمثلة الأخرى يمكننا أن نذكر السينما العراقية التي تعكس قضايا المجتمع بشكل قوي، مثل فيلم"أطفال الشوارع" الذي يتناول حياة الأطفال المشردين في العراق. من خلال هذا العمل السينمائي، يتم فتح باب النقاش حول قضايا الفقر والتشرد والعنف الاجتماعي. الفعل التواصلي هنا يظهر في كيفية استجابة الجمهور لهذه القضايا عبر تقديم الفن كأداة لحث المشاهد على التفاعل مع المشاعر الإنسانية، وبالتالي يدعو الفنان والمشاهد للتفاهم المشترك حول قضايا اجتماعية مهمة.

٥. الشعر الشعبي العراقي:

في الشعر العراقي، نجد أن الشعراء مثل "مظفر النواب" قد استخدموا اللغة الشعرية كوسيلة للتعبير عن معاناة الشعب العراقي من الحروب والقمع السياسي. يفتح الشعر حوارًا بين الشاعر والمجتمع، ويُعتبر نوعًا من الفعل التواصلي الذي يهدف إلى خلق وعي جماعي بالقضايا التي تؤثر على حياة الناس. القصائد لا تُقدّم فقط مشاعر فردية للشاعر، بل تحاول تحفيز المشاعر والوعي الجماعي للمجتمع في مواجهة الأزمات.

المحور الرابع: الفن والتواصل في فلسفة هابرماس .

إن الفن، وفقًا لهبرماس، هو وسيلة للتواصل يسعى إلى عقلنة المجتمع، إذ لا يمكن تحقيق هذه العقلنة إلا من خلال تفعيل دور الفن في مجتمع ديمقراطي يؤمن بالقيم العقلانية لحل مشكلاته والوصول إلى توافقات مشتركة. يعتبر هبرماس أن المجتمع لا يمكن أن يكون ديمقراطيًا حقيقيًا ما لم يكن هناك حضور فعّال للفن، الذي يساهم في تعزيز المواطنة الفعالة ويعمل على تمهيد الطريق نحو تفاهم جماعي واتفاق عقلاني. وبذلك، يصبح الفن جزءًا لا يتجزأ من الديمقراطية، حيث يسهم في تعزيز الفهم والتواصل بين أفراد المجتمع، مما يخلق بيئة ديمقراطية عقلانية تتكامل مع قيم التواصل العقلاني لتحقيق التفاهم المشترك[٢٥].

إن التحول من إشكالية العقل الأداتي إلى ممارسات العقل التواصلي يمكن أن يُنظر إليه كتطور في مجال التعبير الفني، حيث يتم الانتقال من حدود الأطر التقنية البحتة إلى مجالات ذات طابع تواصلي يشمل الوعي الجماعي والمشاعر الإنسانية المشتركة. ففي هذا السياق، يمكننا فهم اهتمام هابرماس بفلسفة "العمل" (Prascies) التي تعطي الأولوية للمعرفة التي تخلقها الذات من خلال تفاعلها مع العالم الممكن، وهو ما يتوازى مع الفن الذي لا يُنتَج في فراغ، بل في تفاعل حي مع الواقع والمجتمع،إن نقد هابرماس للعقل الأداتي وتقديمه لفكرة العقل التواصلي يعكس انفتاحًا على فهم جديد للفن كعملية تواصلية، تتجاوز الأدوات والتقنيات لتصل إلى مستوى أعمق من التعبير الجماعي. وفي هذا السياق، يبرز الفن كأداة لنقد التوجهات الأيديولوجية السائدة في المجتمعات، حيث يعيد الفنان تمثيل الواقع وفقًا لرؤى نقدية تؤدي إلى تفكيك الهياكل الاجتماعية القائمة،من خلال كتابه "نظرية العقل التواصلي"، يسعى هابرماس لإعادة بناء العقلانية النقدية التي ورثت التقاليد الأنوارية، بدمج البعد الاجتماعي مع البعد العقلي في فعل فني يتسم بالحوار والتفاعل المتبادل. هكذا، يصبح الفن نقدًا لفلسفة الذات وفلسفة المثالية على حد سواء، حيث يخلق أفقًا جديدًا لفهم الواقع وتشكيل الوعي الجماعي[٢٦].

لتوظيف الفن وفقًا لفلسفة هابرماس والتواصل العقلاني، يمكن تقديم بعض الأمثلة التي تُظهر كيف يُستخدم الفن كأداة للتفاعل والتواصل داخل المجتمع، بما يتماشى مع الفكرة التي طرحها هابرماس عن دور الفن في تعزيز الديمقراطية والعقلانية التوافقية. فيما يلي بعض الأمثلة على ذلك:

١. الفن كأداة للنقد الاجتماعي.

المثال: يمكن أن يُعتبر الفن الساخر من الأنظمة السياسية أو الاجتماعية شكلاً من أشكال الفعل التواصلي. على سبيل المثال، الأعمال الفنية التي تنتقد الاستبداد أو تبرز قضايا حقوق الإنسان مثل الرسومات الكاريكاتيرية التي تُظهر قادة سياسيين في مواقف هزلية، تساهم في تنبيه الجمهور إلى المشكلات الاجتماعية

والسياسية. هذا النوع من الفن يخلق بيئة من الحوار، حيث يتفاعل المشاهدون مع الرسالة النقدية وينفتح المجال لنقاش عقلاني حول القضايا المطروحة.

٢. الفن في المساحات العامة والمشاركة المجتمعية.

يُمكن تنظيم معارض فنية في الأماكن العامة مثل الحدائق أو الشوارع، بحيث تتفاعل مع جمهور واسع من جميع طبقات المجتمع. هذا يعزز من الديمقراطية ويشجع المواطنين على المشاركة في مناقشة قضايا اجتماعية أو ثقافية من خلال الفن. على سبيل المثال، معرض فني يعكس قضايا البيئة أو العدالة الاجتماعية يمكن أن يفتح حوارًا بين الأفراد من خلفيات مختلفة، مما يسهم في تعزيز الفهم المشترك.

٣. الفن في المسرح كوسيلة لخلق التواصل والحوار.

المسرح يُعتبر وسيلة فعالة لنقل الأفكار والمشاعر الإنسانية المشتركة. العروض المسرحية التي تعكس قضايا مثل التفاوت الطبقي أو الحقوق المدنية تخلق مساحات تفاعلية تُشرك الجمهور في التفكير العميق حول هذه القضايا. من خلال التفاعل مع الشخصيات والقصص المعروضة على المسرح، يُمكن للجمهور أن يواجه التحديات الاجتماعية وأن يساهم في فهم أعمق للعلاقات الاجتماعية والاقتصادية.

٤. الفن كوسيلة لبناء الوعي الجماعي:

يمكننا النظر إلى أعمال الفنان التشكيلي جواد سليم كمثال على كيفية استخدام الفن كوسيلة لبناء الوعي الجماعي، مع توظيف نظرية الفعل التواصلي التي طرحها يورغن هابرماس. جواد سليم، الذي يعد من أبرز الفنانين العراقيين، استخدم أعماله الفنية لنقل رسائل ثقافية واجتماعية هامة تهدف إلى تعزيز الوحدة الوطنية وتعكس هموم الشعب العراقي في مراحل مختلفة من التاريخ.

أحد أبرز أعماله التي تمثل هذا النوع من التواصل الاجتماعي هو تمثال "الحرية" في بغداد. هذا التمثال الذي يمثل شخصاً يرفع يده في حركة تحررية، كان بمثابة رمز للحرية والتحرر من الطغيان، وقد تم وضعه في مكان عام ليكون مرآة للمجتمع ويعكس آماله وطموحاته. من خلال هذا العمل، كان جواد سليم يحاول إيصال رسالة قوية عن الحرية والتغيير السياسي والاجتماعي، وبالتالي كان يشجع على تبادل الأفكار والمشاعر بين أفراد المجتمع العراقي.

في إطار نظرية الفعل التواصلي لهابرماس، يمكن القول إن أعمال جواد سليم تمثل تفاعلًا رمزيًا مع الواقع الاجتماعي والسياسي في العراق، إذ يسعى الفنان إلى خلق فهم مشترك بين الناس وتحفيزهم على التفكير الجماعي والتفاعل مع القضايا الوطنية. من خلال هذه الأعمال، يتم تحفيز الأفراد على الدخول في حوار مفتوح

ومبني على الفهم المتبادل، مما يؤدي إلى تعزيز الوعي الجماعي وتحقيق التفاهم بين مختلف فئات المجتمع،بذلك، يُعتبر الفن بالنسبة لجواد سليم وسيلة للتواصل الفعّال، حيث يعزز الفهم المشترك بين الأفراد ويحفزهم على اتخاذ مواقف عقلانية تُسهم في التغيير الاجتماعي والسياسي في العراق.

٥. الفن في الفيديو والفنون الرقمية:

يُمكن استخدام الفيديو والفن الرقمي كأدوات تفاعلية لخلق نقاشات جماعية. على سبيل المثال، الفيديوهات التي تبرز قضايا حقوق المرأة أو الأقليات يمكن أن تشجع الجمهور على مناقشة هذه القضايا عبر منصات التواصل الاجتماعي، مما يعزز من التواصل بين الأفراد ويسهم في بناء توافقات جماعية عقلانية حول هذه القضايا، إن إصرار هابرماس على فكرة التواصل والفعل المرتبط به ينبع من إيمانه العميق بالدور الذي يلعبه الفن في التعبير عن تجربة الإنسان. فنحن كائنات لا نعيش معًا كما تفعل الكائنات الأخرى التي تشاركنا في الجنس وتختلف عنا في النوع. اجتماعنا يختلف لأنه يرتكز على مشاركة في ممارسات فنية معقدة وثرية، حيث يُهيمن عليها تقديم المبررات وتبادل الآراء حول الأعمال الفنية. الفن، بعبارة أدق، يتأسس على تقديم تفسيرات تشرح أفكارنا وأفعالنا الفنية، ويعتمد أيضًا على مطالبة الآخرين بتوضيح مسوغاتهم التي تفسر أعمالهم. نتيجة لهذه الديناميكية في التعبير والتفاعل، لا نعيش معًا عبثًا أو بشكل عشوائي، بل في فضاء فني يتطلب من كل واحد منا أن يكون مسؤولًا تجاه الآخر، نحن لا نتوقف عن الدفاع عن أعمالنا الفنية التي نؤمن بها، ولا عن الاعتراض على الأعمال التي نرفضها. ومن خلال هذا النوع من التفاعل الفني المستمر، تمكنا من تطوير حساسية خاصة تجاه أهمية الحوار النقدي في تجاوز الصعوبات التي قد تعترض سبيلنا في فهم الجماليات والفنون المشتركة بيننا[٢٧].

ركز هابرماس على نظرية الفعل التواصلي، حيث يرى أن الفاعل هو من يتفاعل مع الأطراف المختلفة، سواء كانوا غالبين أو مغلوبين. وقد قام بتأسيس هذه النظرية على قاعدة ترفض كل أشكال العنف والصراع، بينما ترفع من شأن أخلاقيات الحوار. لكن هذه الأخلاقيات لا تتحقق إلا في إطار عقلية اجتماعية، لا يمكن أن تظهر سوى في مجتمع ديمقراطي يتسم بتفهم الآخر وقبول العيش المشترك بكرامة واحترام، ما يجعل الفعل الاجتماعي ممكنًا وفاعلًا. في هذا السياق، يستطيع المجتمع الديمقراطي أن يتقبل الاختلافات التي تحدد طرق وأساليب الفعل الاجتماعي. ولذا، يذهب هابرماس إلى التفريق بين الفعل التواصلي، الذي يمثل العالم المعيش، وبين الفعل الاستراتيجي أو الأداتي الذي يعتمد على المنطق الأرسطي. حيث أن "العالم المعيش" يشير إلى المجالات غير الرسمية وغير التجارية للحياة الاجتماعية، مثل الأسرة والثقافة والحياة السياسية التي تخرج عن إطار الأحزاب ووسائل الإعلام الجماهيرية،التواصل هو شكل من أشكال الاندماج والتعامل والتفاعل الذي

يبدأ بين الزوجين، ثم ينتقل إلى الأسرة فالمجتمع، ثم يتوسع ليشمل العلاقات الدولية. إنه تفاعل إنمائي وإنساني يعكس قدرة الأفراد على التفاعل بطريقة فنية ومتناغمة رغم اختلافاتهم. فالاندماج والتفاعل مفهومان مختلفان؛ الاندماج يتطلب توافقًا تامًا قد يصطدم باختلافات عميقة بين الشعوب والديانات والأعراق، بينما التفاعل يتيح مجالًا للتعايش السلمي والنمو المشترك. لا يمكن للناس أن يندمجوا دينيًا أو ثقافيًا بسبب تنوعهم، لكنهم قادرون على التفاعل الفني والتنموي، مما يسهم في الحفاظ على البيئة وتحقيق التوازن بين الكون والإنسان والحياة. في التفاعل، لا تتأثر الأفعال الاجتماعية لشعب ما بمعتقدات الآخرين أو تؤثر فيها؛ لأن التفاعل هو فعل إنساني وعام يفيد الجميع دون أن يمس الخصوصيات، وهذا هو جوهر التواصل الإنمائي الذي يمكن أن يزدهر بفضل الفن كوسيلة لفهم التنوع وتعزيز التعاون بين الثقافات[٢٨].تُعلي تواصلية هابرماس من شأن العقل في إنجاح الحوار وتحقيق الإجماع، معتبرةً أن الفن يكمن في استخدام العقل بشكل يحقق تواصلًا إنسانيًا ناعمًا بعيدًا عن الضغوطات. وبذلك، تجعل القوة أمرًا باليًا، متجاوزةً إياها كعائق أمام هذا التواصل، إذ باتت القوة جزءًا من مخلفات إيديولوجيا السلطة التي تعمل على قمع الجماهير ومنعهم من التواصل بحرية. فالتواصل العقلاني يصبح بذلك خصمًا قويًا لإيديولوجيا السلطة اللاعقلانية، التي تسعى إلى تشويه المعرفة وإبعادها عن الجماهير، مما يجعلها ناقصة وغير واضحة أو بلا معنى. ومن هنا يأتي مصطلح "التواصل المشوه"، الذي يطلقه هابرماس على تلك الإيديولوجيا التي تعتبر تأثير السلطة القمعي على تواصل المواطنين. الهيمنة التي تُمارس على هذا التواصل لا تمنع الوصول إلى فهم مشترك وإجماع، لكنها تساهم في تزوير هذا الفهم وتحريفه، مما يُنتج إجماعًا زائفًا يفتقر إلى الشرعية العقلانية، ويحول دون أي فرصة لإبداع فن حقيقي في التواصل[٢٩].

يرى هابرماس أن التواصل في المجتمع العقلاني يتطلب امتلاك الأدوات الحجاجية والقدرة على إدارة هذه الأدوات بشكل علمي وأخلاقي، فضلاً عن البُعد التعبيري والجمالي، لتحقيق الهدف الأسمى المتمثل في الاتفاق والإجماع. ويشير إلى أن "ما يمكن استخلاصه من ترابط الأشكال المختلفة للمحاجة هو مفهوم إجرائي للعقلانية، لا يقتصر على دمج البُعد العلمي والأخلاقي فحسب، بل يشمل أيضًا البُعد الجمالي والتعبيري". يتضح أن هذا المفهوم يتجاوز العقلانية الغائية التقليدية التي تركز على البُعد المعرفي والأداتي، ليعكس غنى أكبر في القدرة العقلية التي تستند إلى صدق القول وتعكس طاقتها العميقة، من خلال هذه العقلانية التواصلية، يشير هابرماس إلى التصورات القديمة عن "اللوغوس" (العقل) الذي يتجاوز حدود المعاني الذاتية الضيقة، ليحمل فضيلة التوافق والتصالح دون إكراه. هذا التصور يعزز تأسيس اتفاق قائم على مبررات عقلية، مما يسمح بتجاوز التحيزات الذاتية التي قد تهيمن على المشاركين في بداية الحوار، ويُمهد الطريق نحو تفاهم مشترك يُوازن بين العقلانية والفن في التعبير، حيث يصبح التعبير الجمالي جزءًا لا يتجزأ من عملية التواصل التي تهدف إلى تأسيس تفاهمات مشتركة متجددة[30].

نظرية هابرماس في الحوار والتواصل يمكن تطبيقها في العديد من المجالات، ومنها الفن، حيث يمكن استخدام مفهوم الحوار التواصلي لفهم التفاعلات بين الفنانين والجمهور. يشمل ذلك التبادل المستمر للأفكار والرؤى بين الأعمال الفنية والمشاهدين، مما يساهم في تشكيل المعنى وتوسيع أفق الفهم الجماعي. حوار هابرماس مع البابا السابق بنديكتوس حول الدين والعلمنة والسياسة يمكن تشبيهه بالحوار الذي يحدث بين العمل الفني والمتلقي، حيث يتلاقى الانتماءات الثقافية والفكرية المختلفة في تبادل يهدف إلى إرساء أرضية مشتركة. رغم أن هابرماس شعر بالتشاؤم بعد أحداث ١١ سبتمبر حول إمكانية توسع مشروعه التواصلي في مجالات مثل "الحوار العمومي"، إلا أن هذا التشاؤم يمكن أن يعكس التحديات التي تواجه الفن في بيئة معقدة مثل العالم المعاصر، حيث تتداخل السياسات والآيديولوجيات مع التعبير الفني، ما يجعل التواصل الفني أكثر تعقيدًا وصعوبة[31].

الاستنتاجات :-

١. يعتبر الفن العراقي وسيلة فعالة للتفاعل بين الأفراد والمجتمعات، ويُستخدم للتعبير عن الواقع الاجتماعي المعقد في العراق، مما يعزز الحوار بين مختلف الفئات المجتمعية.

٢. في سياق العراق، يعكس الفن الصراعات الداخلية والهوية الوطنية، ويعمل على تفعيل النقاش حول قضايا الهوية والمواطنة بين مختلف المكونات الثقافية.

٣. يسهم الفن في بناء جسور تواصل بين الأجيال المختلفة في العراق، مما يساعد في نقل التجارب الجماعية والذكريات التاريخية بين الأفراد.

٤. يعمل الفن على تجاوز الانقسامات العرقية والطائفية في العراق ويعزز الحوار بين أطياف المجتمع المختلفة من خلال تجسيد التجارب المشتركة.

٥. استنادًا إلى فكرة هابرماس عن العقل التواصلي، يمكن للفن العراقي أن يُسهم في بناء مشروع ثقافي اجتماعي يقوم على التفاهم المتبادل بين الأفراد والجماعات دون هيمنة أحد.

٦. يساعد الفن في تسليط الضوء على التحديات السياسية والاجتماعية في العراق، ويقدم رؤى نقدية تتجاوز الأنظمة التقليدية السائدة.

٧. من خلال اللغة البصرية والتعبيرية التي تسهم في تعزيز التفاعل الإبداعي.

٨. الفن في العراق، وفقًا لهابرماس، يجب أن يسعى لتحقيق تفاعل حر بين الأفراد، بعيدًا عن الضغوط السياسية أو المصالح المادية، مع التأكيد على التفاهم الجمالي.

٩. يُعتبر الفن العراقي جزءًا من المشروع الحداثي الذي لم يكتمل بعد، حيث يسعى لتحديث الهويات الثقافية والفنية من خلال النقد الاجتماعي والفني.

١٠. في العراق، يمكن للفن أن يلعب دورًا محوريًا في الحفاظ على الخصوصيات الثقافية والفنية للمجتمع العراقي، بينما يعزز من التواصل والانفتاح على الثقافات المختلفة.

وأخيرا نلاحظ ان تشكيل الفنون العراقية بجميع أنواعها واشكالها الثقافية والتعبيرية هي وسيلة فعالة للتواصل المجتمعي وتعزيز الهويات الثقافية ويمكن توظيفها من منظور الخدمة الاجتماعية لدعم التنمية والوقاية والتأهيل الاجتماعي والاخصائي الاجتماعي يعمل على تصميم البرامج الفنية التي تتيح التعبير الإبداعي عن المشكلات والاحتياجات مما يعزز لغة الحوار بين الفئات المجتمعية كما تستخدم الفنون في العلاج الاجتماعي لتفريغ الضغوط النفسية وبناء مهارات التكيف الإيجابي كما يبرز دورها في دعم المبادرات الثقافية التي ترسخ قيم التسامح والمشاركة وتزيد الوعي بالقضايا الاجتماعية والمجتمعية ويعكس هذا التوظيف للخدمة الاجتماعية في الفنون العراقية استراتيجية مهنية متكاملة ترتبط بين الهوية الثقافية والقيم الإنسانية لتشكيل مجتمع متماسك ومتفاعل .

التوصيات والمقترحات :-

١. ينبغي دعم المبادرات الفنية التي تعزز التواصل بين مختلف الفئات المجتمعية وتعكس الواقع الاجتماعي المعقد في العراق.

٢. تشجيع الفنون كمحفز للنقاش حول الهوية والمواطنة يجب تحفيز الفنانين على استخدام الفن كأداة لفتح النقاش حول قضايا الهوية الوطنية والمواطنة، وتفعيل الحوار بين المكونات الثقافية المختلفة.

٣. يُوصى بتنظيم فعاليات فنية تساهم في بناء جسور تواصل بين الأجيال وتوثيق الذكريات الجماعية والتاريخية.

٤. من المهم دعم الفنون التي تساهم في تجسيد التجارب المشتركة وتعمل على تجاوز الانقسامات العرقية والطائفية.

٥. ينبغي تشجيع الأعمال الفنية التي تتبنى التفاهم المتبادل بين الأفراد والجماعات بعيدًا عن الهيمنة السياسية أو المصالح المادية.

٦. يجب تعزيز دور الفن في تقديم رؤى نقدية حول التحديات السياسية والاجتماعية في العراق.

٧. يُوصى بتوفير منصات فنية تتيح تفاعلًا إبداعيًا مفتوحًا بعيدًا عن القيود السياسية أو الاقتصادية.

٨. ينبغي تعزيز بيئة ثقافية تسمح للفنانين بالعمل بحرية دون ضغوط سياسية، مع التركيز على التفاهم الجمالي.

٩. يجب استثمار الفن في تحديث الهويات الثقافية والفنية من خلال النقد الاجتماعي والفني.

١٠. يُوصى بتطوير مشاريع فنية تعزز من الخصوصيات الثقافية العراقية مع الانفتاح على الثقافات العالمية.

المصادر :-

١.أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، المجلد الأول، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨.

٢. أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات الدراسات الإنسانية والفنون الجميلة والتشكيلية، الطبعة الأولى، دار الكتب المصري، القاهرة، ١٩٩١.

٣. أياد محمد الصقر،معنى الفن، الطبعة الأولى، دار المأمون، الأردن، ٢٠١٠.

٤. أرستن هارينغتون،الفن والنظرية الاجتماعية، الطبعة الأولى، ترجمة حيدر حاج إسماعيل، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠١٤.

٥. ثروت عكاشة، الفن والحياة، الطبعة الأولى، دار الشروق، ٢٠٠٢.

٦. حكمت أحمد سمير، المسرح العربي المعاصر،الطبعة الأولى، الجنادرية، الأردن، عمان، ٢٠١٥.

٧. معن خليل عمر، علم اجتماع الفن، الطبعة الأولى، الشروق، ٢٠٠٨.

٨. مصلح صالح، معجم الشامل، قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية،دار عالم الكتب، ١٩٩٩.

٩. مجدي وهبة، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، الطبعة الثانية، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤.

١٠. معجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، الطبعة الرابعة، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٤.

١١. ناتالي أينيك، سوسيولوجيا الفن، الطبعة الأولى، ترجمة حسين جواد قبيسي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٧.

١٢. ناصر الدين الأسد وآخرون،حوار الحضارات والمشهد الثقافي العربي،فكر عربي (سياسية)، مؤسسه عبد الحميد شومان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤.

١٣. ناصر يوسف،التواصل الإنساني والإنمائي المركب: سيميات الغلبة،دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ٢٠٢١.
١٤. عبد الرزاق محمد الدليمي، صناعة الإعلام العالمي المعاصر،اليازوري، الطبعة الأولى، ٢٠١٩.
١٥. علي عبود المحمداوي، الماركسية الغربية وما بعدها: التأسيس والانعطاف والاستعادة، دار ومكتبة عدنان، الطبعة الأولى، ٢٠١٤.
١٦. محمد طه جواد الساعدي وآخرون، الأدب الهاشمي: مقاربة نقدية في الأصول والمقولات، دار الخليج، الأردن، عمان، الطبعة الأولى، ٢٠٢١.
١٧. يورغن هبرماس، نظرية الفعل التواصلي، ترجمة فتحي المسكيني، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ج. ٢، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٢٠.
١٨. مجلة المدى الثقافي،"من تاريخ فن التمثيل في العراق"، الأحد ٢١ أيار ٢٠٠٦، العدد ٦٧٣.
١٩. نور الدين علوش، المدرسة الإلمانية النقدية: نماذج مختارة، الطبعة الأولى، دار الفارابي، لبنان، بيروت، ٢٠١٣.
٢٠. طاهر حسو الزيباري،النظرية السوسيولوجية المعاصرة، الطبعة الأولى، دار البيروني، ٢٠١٦.
٢١. مجدي وهبة، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، الطبعة الثانية، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤.
22. Don Rubin, The World Encyclopedia of Contemporary Theater, first published, 1999
23. Oxford,Concise Dictionary of Art Terms, University Press, 2010

الهوامش:

(1) أحمد مختار عمر ، معجم اللغة العربية المعاصرة ، المجلد الأول ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٨ ، ص١٧٤٦.

(2) مجدي وهبة ، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، الطبعة الثانية ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ص٢٧٩ .

(3) معجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، الطبعة الرابعة ، مكتبة الشروق الدولية ،٢٠٠٤ ، ص ٧٠٣ .

(4) مصلح صالح،معجم الشامل ، قاموس مصطلحات العلوم الأجتماعية ، دار عالم الكتب , ١٩٩٩ ، ص٢٥٠.

(5) أحمد زكي بدوي ، معجم مصطلحات الدراسات الأنسانية والفنون الجميلة والتشكيلية ، الطبعة الأولى , دار الكتب المصري ، القاهرة ، ١٩٩١ ، ص٢٧ .

(6) ينظر،معن خليل عمر ، علم أجتماع الفن ،ط١، الشروق ،ص٨٨.

(7) oxford , concise dictionary of art terms , university press , 2010 , page 15.

(8) أياد محمد الصقر ، معنى الفن ،ط١، دار المأمون ، الأردن ، ٢٠١٠ ، ص١٦١.

(9) ناتالي أينيك ، سوسيولوجيا الفن ،ط١، ترجمة ، حسين جواد قبيسي ، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت ، ص٢٣٣.

(10) أرستن هارينغتون ، الفن والنظرية الأجتماعية ،ط١، ترجمة،حيدر حاج أسماعيل ، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت ، ٢٠١٤، ص٢٩ .

(11) مصري عبد الحميد حنورة ، علم نفس الفن وتربية الموهبة ، دار غريب ، القاهرة ، ٢٠٠٠ , ص٢٨٤.

(12) ناتالي أينيك ، مصدر سابق ، ص٦٧ .

(13) حكمت احمد سمير، المسرح العربي المعاصر،ط١، الجنادرية ، الاردن ، عمان ، ٢٠١٥ ، ص٤ .

(14) ثروت عكاشة ، الفن والحياة ،ط١، دار الشروق ، ٢٠٠٢ ، ص٩ .

١٥ ينظر:هبرماس، يورغن ، نظرية الفعل التواصلي،ت؛فتحي المسكيني، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات،ج٢،ط١، بيروت،٢٠٢٠، ص٢٣

١٦ ينظر:الدليمي، عبد الرزاق محمد، صناعة الإعلام العالمي المعاصر، اليازوري، ط١، ٢٠١٩،ص٣٢.

١٧ ينظر:الساعدي،محمد طه جواد ، واخرون، الأدب الهاشمي" مقاربة نقدية في الأصول والمقولات، دار الخليج، الأردن، عمان، ط١، ٢٠٢١، ص٧٨ .

١٨ ينظر:الدليمي، عبد الرزاق محمد، صناعة الإعلام العالمي المعاصر، اليازوري، ط١، ٢٠١٩، ص١٣٤

١٩ ينظر:هبرماس، يورغن ، نظرية الفعل التواصلي،ت؛فتحي المسكيني، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات،ج٢،ط١، بيروت،٢٠٢٠،ص٢٧.

٢٠ ينظر:الزيباري،طاهر حسو،النظرية السوسيولوجية المعاصرة،ط١،دار البيروني،٢٠١٦،ص٤٦٦.

٢١ ينظر:علوش،نور الدين، المدرسة الإلمانية النقدية" نماذج مختارة"،ط١،دار الفارابي،لبنان،بيروت،٢٠١٣،ص٦٢

(22) ناصر الدين الأسد وآخرون ، حوار الحضارات والمشهد الثقافي العربي ، فكر عربي (سياسية) ، الأردن ، مؤسسه عبد الحميد شومان ، الطبعة الاولى ، ٢٠٠٤ ، ص١١٠.

(23)Don Rubin ,the world encyclopedia contemporary theater ,first published , 1999,page8

(24) مجلة المدى الثقافي ، من تاريخ فن التمثيل في العراق ، الأحد /٢١ أيار /٢٠٠٦ ، العدد٦٧٣ ،ص١١.

٢٥ ينظر:يوسف،ناصر، التواصل الإنساني والإنمائي المركب-سيميات الغلبة، دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٢١،ص٤٥.

٢٦ المصدر نفسه، ص٧٦.

٢٧ ينظر:المحمداوي، علي عبود، الماركسية الغربية وما بعدها" التأسيس والانعطاف والاستعادة،دار ومكتبة عدنان، ط١، ٢٠١٤، ص٢٢٦.

٢٨ ينظر:الدليمي، عبد الرزاق محمد، صناعة الإعلام العالمي المعاصر، اليازوري، ط١، ٢٠١٩،ص٤٠-٤١ .

٢٩ ينظر:الدليمي، عبد الرزاق محمد، صناعة الإعلام العالمي المعاصر، اليازوري، ط١، ٢٠١٩،ص٤٣.

٣٠ المصدر نفسه،ص٤٤

٣١ ينظر:الدليمي، عبد الرزاق محمد، صناعة الإعلام العالمي المعاصر، اليازوري، ط١، ٢٠١٩، ص١٣٨.

1. Don Rubin, The World Encyclopedia of Contemporary Theater, first published, 1999
2. Oxford,Concise Dictionary of Art Terms, University Press, 2010